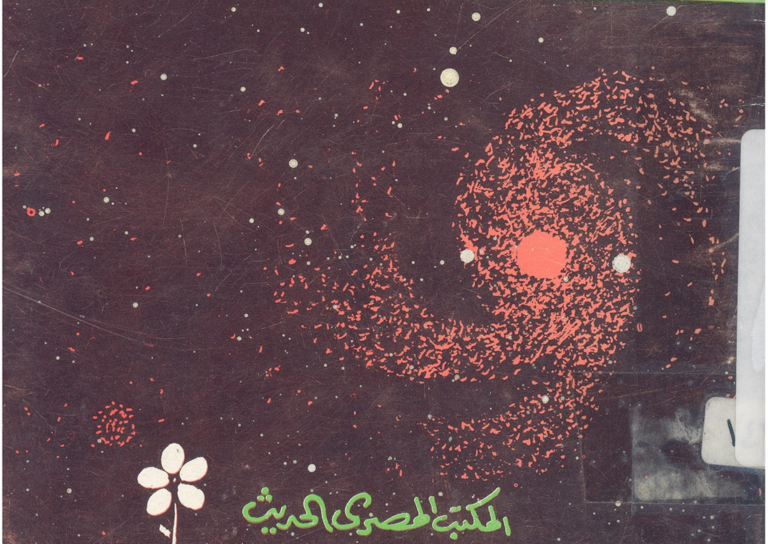
لا إكراه فى الدين

تأليف

محمد على محمد



المكتب المصرى الحديث

إهـــــــداء ٢٠٠٧

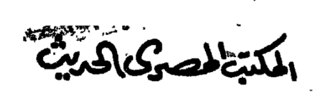
الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف
المراقبة العامة
للثقافة والارشاد الدينى
المكتب الفنى للدعوة الإسلامية

لا إكراه فى الدين

تأليف
محمد على محمد



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

فى هذا الكتيب الصغير نعالج قضية من قضايا الفكر الإسلامى لعلها من أخطر قضاياه فى العصر الحديث فقد اتهم الإسلام من خصومه فى الماضى والحاضر بأنه دين انتشر بالقوة وبحد السيف ، واعتمد المغرضون والحاسدون على أدلة واهية من تاريخ الفرق الإسلامية وعلى نصوص من الكتاب والسنة أساءوا فهمها وانحرفوا بها عن مقاصدها وانتزعوها من سياقها .

ورغم أن عدداً من المفكرين المنصفين الغير مسلمين والمسلمين قد كفونا مئونة دحض هذه المفتريات بعد دراستهم للإسلام إلا أن التجاوز جاء هذه المرة من بعض أبناء الإسلام أنفسهم الذين عادوا يجترون نفايات الفرق الإسلامية القديمة بعد أن عفى عليها الدهر وتوارت فى زوايا النسيان فعدنا نسمع مرة أخرى دعاوى تكفير المسلم واعتزال المجتمع التى أسس دعائمها فرق الخوارج والتعصب المذموم للرأى وتقليد الأشخاص كما فعل متأخرو بعض المذاهب الفقهية والثورة على الأنظمة القائمة والتحفز للإنقضاض عليها بتكوين الجماعات السرية وتلك كانت سنة الباطنية والقرامطة الذين أشاعوا الذعر والارتباك فى صفوف

المسلمين حتى استؤصلت شأفتهم من قرون بعيدة . ولذلك كان غريبا أن تعود هذه المفاهيم إلى الساحة الإسلامية وأن يعتنقها ويتصدى للدفاع عنها شباب مسلم لم يجن من وراء ذلك خيراً ولم يحقق للإسلام نصرا ويرى البعض تعليل ذلك فيما مر على البلاد من ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة جرتها ويلات الحرب الضروس مع عدو شرس متسلط مع خواء فى الفكر الدينى وتقصير فى تدريس أصول الإسلام والتعريف به للناشئة والطلاب والحق يقال إن هذه لم تكن السمة الغالبة لكل شبابنا الذى بدأ يتجه نحو العمل الإسلامى فرغم قصور المناهج الدينية الدراسية عكف عدد كبير من شباب المدارس والجامعات على دراسة الفقه الإسلامى والقرآن الكريم ولكنهم وقفوا حائرين أمام الأفكار المختلفة التى راجت باسم الإسلام فظن بعضهم أنها الطريق لرضاء الله واتخذها البعض وسيلة للتعبير عن السخط .

ومرت سنوات دون أن يجدوا الجواب الشافى بعد أن تورط البعض فى تجمعات خاصة ركبت متن الشطط وتجاوزت الحد ورفضت الإنصياع لصوت الحق والتسامح والعقل . وحدث ما حدث من أمور نعرفها جميعاً .

والآن وقد خفت حدة المشاكل وتبين للكثيرين مدى الخطورة التى تحيق بالبلاد والعباد من عدم الإسراع فى العلاج انفسح المجال للنقاش الفكرى الجاد مستبصرين جميعاً بروح الإسلام وقدرته

على تقديم الدواء الناجع . والفكر عندما يخالط الشعور ويحرك العاطفة لا يمكن التعامل معه إلا بالحجة الدامغة والكياسة والرغبة الصادقة فى الإصلاح والتسامح والعدل . أما العقوبة فليست هى الطريق الأمثل دائماً . وشباب الأمة هم فلذات أكبادها وأملها فى مستقبل سعيد ولابد أن تتضافر الجهود للوصول بالركب إلى بر الأمان . وقد رأينا أن ندلى بدلونا على قدر ما نستطيع فى محاولة التبصير العلمى الجاد بحقائق الإسلام على شكل كتيبات صغيرة يعالج كل منها جانباً من جوانب الفكر الإسلامى .

ولا شك أن قضية الإكراه فى الدين أو ما نسميه سبيل العنف لفرض الرأى هى أولى القضايا بالبحث والتحقيق وهى قضية ليست نبت الساعة ولكنها القاسم المشترك الأعظم فى كل أدوار العنف والصراع بين الجماعات وبعضها أو بينها وبين السلطة . وقد اخترنا عنوانا لهذا الكتيب آية من القرآن الكريم « **لا إكراه فى الدين** » وهى وحدها كافية للتعبير عن الهدف والقصد . ونسأل الله أن يوفقنا كى نواصل إصدار ما التزمنا من كتيبات أخرى فى معانى إسلامية هامة خاصة بفكر الجماعات حتى يستقيم الناس معنا على معانى الود والخير تحت راية الإسلام .

« **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** »

صدق الله العظيم

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

لم يكن البعث الإسلامى فى القرن السابع الميلادى مجرد رسالة جديدة ظهرت فى بلاد العرب ولم يكن العرب المسلمون الذين خرجوا من جزيرة العرب يغزون أرض فارس والروم فى زمن الخلفاء الراشدين جنسا كباقى الأجناس التى سبقتهم فى إقامة الدول أو الامبراطوريات .

لقد خرج الإنسان قبل الإسلام يقاتل أخاه الإنسان ليتحقق الفوز أو الاستعلاء لجنس ما على جنس أو أجناس أخرى أو ليحقق ملك أو قائد كبير طموحه فى السيادة والغلبة لتعيش دولته فوق أشلاء الآخرين . .

لقد شهدت رقعة العالم قبل الإسلام جيوش الفراعنة وجيوش آشور وبابل وغزوات الإغريق والفرس والرومان . تخضب ثرى الأرض بالدماء وارتفعت رايات المنتصرين فوق الأشلاء وديست فى لحظات النصر كل قيم السماحة أو الرحمة وسيطر الجنس الغالب على أرض المغلوب يستبيح دمه وعرضه ويهدر آدميته .

غزوات تلو غزوات وجنس غالب يستعبد أجناسا أخرى . وفى غمار هذه الأحداث اندثرت المعانى الأصيلة التى جاءت بها

رسالات السماء وخبا النور الذى كان يشرق أحيانا هنا أو هناك حين يبعث الله رسولا أو يوحى إلى نبى .

ولما كان المسار الأصيل للوجود الإنسانى على هذه الأرض هو أن يكون الإنسان خليفة لله فى الأرض تحقيقاً لقول الله سبحانه وتعالى : « **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة** » فإن مظاهر هذه الخلافة طمست طمسا كاملاً تحت بروق المطامع ، وأبهة الملوك ، واستبداد الأباطرة حتى عبد الناس من دون الله وحتى ضمرت فى الإنسان العادى معانى الحرية التى أرادها له الله .

وبينما كان الإنسان فى كل مكان يتطلع إلى الخلاص ، ويبحث عن مخرج إلى النور يائسا حائرا انبثق أول خيط من خيوط هذا النور فى شعاب مكة ، ودروبها حين نزل القرآن على محمد ﷺ لتبدأ فى تاريخ الإنسانية مرحلة جديدة تصحح المسار الإنسانى وتغسل عن القلوب أدران الذل ، والهوان وتهديها إلى الخير ، والسلام والفلاح .

« **قد جاءكم من الله نور وكتاب . مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** » (سورة المائدة آية ١٥ ، ١٦)

ولذلك كان معنى الرحمة ومعنى السلام ومعنى الهداية هى أولى

المعانى التى تضمنتها حركة البعث الإسلامى فى نور محمد ﷺ .

وقد كانت البشرى فى الكتب السماوية السابقة للقرآن تؤكد انتظار آخر المرسلين وخاتم النبيين ليحرر الإنسان من ضيق الدنيا ، ومن جور أخيه الإنسان ؛ لذلك تعين على أهل الأديان السماوية السابقة أن يتبعوا نور القرآن ، وهدى محمد ﷺ حتى يتحقق لهم ماراموا من فلاح .

« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »

(سورة الأعراف : ١٥٧)

ومن هذا المنطلق تكون الدعوة إلى الله فى الإسلام . فكل وسيلة من وسائل الدعوة تنقض مبدأ التراحم أو تحجر على العقول أو تثير العصبية أو تفتح باب الفتنة لا يمكن أن تكون من الوسائل التى تتفق مع الإسلام لأن الغايات الإسلامية النبيلة لا يمكن السعى إليها إلا بالوسائل النبيلة .

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » .

(سورة فصلت : ٣٣)

فقد شرط الله سبحانه وتعالى العمل الصالح بعد الدعوة إليه وقبل أن يرفع الداعية شعار الإسلام . فمن زعم أنه يدعو إلى الله ثم اشتط فى الأمر أو تجاوز الحد أو خالف أوامر الله كان داعية إلى أى شيء آخر غير دين الله . فلا ادعاء للإسلام إلا بعد العمل الصالح سمة هامة من سمات الدعوة فى الإسلام .

إن الأمجاد الكبرى التى تنسب الآن إلى الحضارات السابقة للإسلام أمجاد لا تعدو الفنون المعمارية والمبانى الهائلة وأساليب الحياة المترفة والنقش والنحت والزخرفة وفنون القتال وتنظيم الجيوش فقد فتن المصريون القدماء العالم بأهراماتهم وهندسة بنائهم ومظاهر حضارتهم المختلفة مثلهم فى ذلك مثل البابليين وقبائل سبأ والآشورين والميتانيين والحيثين والفرس ثم ظهرت حضارة اليونان وانتجت للعالم فن التفكير الفلسفى الراقى والنظم السياسية والإدارية فعنهم أخذت مفاهيم الديمقراطية والدكتاتورية والارستقراطية ثم جاء الرومان فاجتاحوا كل أوروبا تقريبا وشمال أفريقيا ومصر والشام وأذهلوا العالم بقوانينهم ونظمهم الإدارية والعسكرية والسياسية .

ولما سقطت روما فى يد البرابرة من القوط الغربيين سنة ٤٧٦ . اعتبرت هذه السنة نهاية لعهد الحضارات الرائعة السابقة وحدد فلاسفة التاريخ الإنسانى هذه السنة كبداية لعهد استمر عشرة قرون اعتبروه عهد الظلام والتأخر حتى تم بعث الحضارة اليونانية

والرومانية فى القرن الخامس عشر وعادت أوروبا تستمد فلسفا حياتها من التراث اليونانى والرومانى وبدأت بذلك عهدا جديد أطلق عليه عهد النهضة الأوروبية الحديثة .

ونظراً لقيام أوروبا الحديثة على أساس إحياء التراث الرومانى فقد اصطبغ الفكر السياسى بعد عصر النهضة بالفكر الامبراطورى الرومانى القديم وقامت الدولة الأوروبية الحديثة بتكوين نفسها على شكل امبراطوريات أو ملكيات أو جمهوريات قوية تتصارع من أجل السيطرة والسيادة وبعث القوميات وإذكاء نار الصراع الجنسي . ثم بدأ عصر الاستعمار وجاء الجندى الأوروبى إلى أفريقيا ، وآسيا ، وأمريكا الشمالية والجنوبية لتعود إلى العالم من جديد صورة الجندى الرومانى القديم المتعالى صورة القوى الذى يعتبر نفسه جنسا أعلى بحكم السلاح الذى يحمله وعلى الضعفاء أن يقدموا له القرابين ، وأن يتركوا خيرات بلادهم لذلك الجنس الغالب .

نعم إن العالم الغربى اليوم قد بلغ شأوا بعيدا فى التقدم العلمى والحضارى وفنون الحياة ولكن شبح الدمار يسيطر على العقول والأفهام . هناك إحساس عارم بنقص وخواء روحى يحاولون سبر غوره واجتثاث جذوره ولكن الأمر ليس فى طبيعة سعيهم نحو الحضارة ولكنه فى قرارة النفوس .

إنه ذلك الشيء الذى منيت به الحضارات السابقة فى العهد القديم فجعلها فريسة سهلة أمام الغزو الإسلامى الظافر خواء الروح وفساد القلوب .

تحرر القلب الإنسانى من الخوف ، والذل . وتحرر النفوس من عبادة العباد وهو السلاح البتار الذى بعث فى أمة العرب روحا جديدة جعلها تخرج باسم الإسلام لتقوض دعائم أكبر وأعظم دولتين على ظهر الأرض فى ذلك الوقت فى سنوات قلائل « **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تَعْمَى الأبصار ولكن تَعْمَى القلوب التى فى الصدورْ** »[1]

لقد جاء الإسلام ليعيد الإنسان إلى فطرته وليغسل عن النفوس الذل والمهانة . جاء الإسلام ومحور نشاطه وصميم عمله أن يحرر الإنسان وأن يرد إليه كرامته ، وأن يأخذ بيده إلى الطريق المستقيم ، ويخرجه من الظلمات إلى النور .

جاء الإسلام بكل أوامره ، ونواهيه ، وشرائعه ، وأحكامه رحمة للإنسان الذى حوله النظام الحضارى القديم إلى عبد ذليل يعبد حاكمه أو صاحب السيادة عليه أو جندى من جنود الامبراطور أو الملك . يساق إلى معارك لا مصلحة له فيها فيراق دمه لينتشى

---

(١) الحج ٤٦

الملوك بثمرات النصر أو فلاح يزرع ليجنى غيره أو بناء يبنى قصور الطغاة ومقابرهم .

كان الإنسان الحقيقى الذى أنزله الله إلى الأرض خليفة له سبحانه ليعمر الأرض ، وليعبد ربه ، ويسبح بحمده ، ويقدس له قد تلاشى وكانت القلوب تحن إلى يد رحيمة تحيى مواتها وترفع إصرها والأغلال التى كانت عليها .

وجاء الإسلام ليعيد تصحيح مسار الإنسانية ، جاء ولب رسالته إصلاح النفوس والقلوب ولم شعثها ورأب صدعها . جاء ليقدم العلاج الوحيد الناجع لإدواء البشرية ، وبعث القلوب . لم يقدم للناس فلسفة عقلية ولا فنا من فنون المعمار وإن كانت هذه كلها من ثمرات حضارته بعد ذلك ، ولكنه فتش عن الإنسان الضائع فى ركام المعارك وتحت نير القياصرة والأكاسرة فمست يده الرحيمة شغاف القلوب فنبضت بالخير وظهرت لأول مرة فى التاريخ أمة تقاتل من أجل القيم الربانية العليا ، من أجل أن يخضع الإنسان لله فقط ، من أجل تحرير نفوس الناس وقلوبهم من ذل الشرك والكفر وتعدد الأرباب .

ولم يكن الملوك والقواد الذين واجهوا المد الإسلامى الجارف فى عهد الخلفاء الراشدين ليدركوا هذه الحقيقة ؛ فقد ظنوا المسلمين الغزاة جنسا عربيا خرج من حدود بلاده يطلب الغنيمة والسلب

فعرضوا عليهم الأموال والمنح والعطايا تماماً كما فعلت قريش مع محمد ﷺ حين جاهر لهم بدعوته ؛ فقد ظنوا أنه يريد المال أو العز بمنصب أو جاه ولما رفض كل ذلك حاروا فى أمرهم ثم رفضوا دعوته لهم باتباع الله الواحد لأن أشرافهم كانوا قد ولغوا فى استعباد الناس وأقاموا عزهم على رقاب الضعفاء ولم تكن الدعوة إلى عبادة الله إلا تحطما لهذا العز ومساواة لهم بباقى العباد وتخليهم عن غرورهم وصلفهم ولهذا قالوها مستغربين « **ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق** »[1] وحق لهم هذا العجب فقد كان البعث الإسلامى شيئاً غريبا على نفوسهم التى لم تألف سوى التجبر والفخر الكاذب بالقوة والنسب والطغيان .

ولكن دولة قريش الكافرة زالت كما زالت دولة الفرس ودولة الرومان وظهر فى المنطقة كلها جيل جديد متحرر القلب وثاب الحب لله ولرسوله ولإخوانه المؤمنين .

والجديد فى هذا البعث كما قلنا . الجديد على الطغاة والحكام وأهل الجور الذين واجهوا المد الإسلامى الأول ، إنه يخالط القلوب ويحرك الوجدان ويغير ما بالنفوس .

وتلك هى القاعدة الأولى للدعوة إلى الله فى الإسلام فلا إيمان إلا بالاقتناع الكامل عقلا وقلبا بتوحيد الله ثم الاقبال بكل ارتياح

---

(١) سورة ص ٧

ودون إكراه إلى تنفيذ أحكامه وإطاعة شرائعه .

القلب الحر إذن ، والعقل المقتنع والمشاعر المستقرة الغير مترددة هى التى تتقبل الإسلام وتعمل له .

لقد انهارت كل الحضارات القديمة وسقطت دون أن تسعد الناس أو تقدم لهم الإحساس بالأمان لأن الله جعل سعادة الإنسان فى قلبه . فى فطرة الإنسان التى خلقها الله . نزوع إلى معرفة الله ، والإقرار له بالتوحيد ، والربوبية وذلك هو العلاج الوحيد لكل مساوىء الانحراف الإنسانى ، وجاء الإسلام ليزيل ما علق بهذه الفطرة ، وليفتح أمام القلوب أبواب السعادة الحقيقية وليقرر أنه ما من علاج إلا علاج النفوس « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » .

(الرعد : ١١)

وليرسم طريق النور والخلاص على أساس تلك الفطرة الكامنة فى القلوب والنفوس .

« **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » .

(الروم : ٣٠)

الإيمان طمأنينة ويقين وانشراح قلب والإكراه ليس كذلك

من السهل أن نقول بعد ذلك إن مبدأ عدم الإكراه فى الدعوة إلى الإسلام هو أسمى وسيلة من وسائل هذه الدعوة وهو مبدأ ينبع من روح الرسالة وخصائصها .

والمكره على شيء قد يتصرف أمام الناس بما يفسر على أنه قد امتثل ورضى دون أن يخالط قلبه الإيمان بما يؤدى من أعمال أو عبادات أو بما يقول من قول . وهذه حالة تتعارض مع هدف الإسلام من ربط القلوب بالله وإسلام النفس والقلب والجوارح له سبحانه وتعالى والعمل لا يكون مقبولا عند الله ولا يستحق ثوابا إلا إذا كان خالصا للعلى القدير صادرا بنية التقرب منه سبحانه وتعالى .

يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لك امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

ولا شك أن كل وسيلة من شأنها صرف القلوب عن الحق أو إيغار الصدور أو إثارة الكراهية يرفضها الإسلام من أول الأمر .

(١) متفق عليه

وكما يحرص الإسلام على مظهر العبادة وشكلها العام الظاهر يحرص فى الأصل على جانب المصلحة الأخروية المترتبة على العبادة والتى هى مناط الثواب والعقاب وتلك لا تتحقق إلا بالنية الصادقة بين العبد وربه وهى تتم بالتدريج وتسمو شيئاً فشيئاً بالتربية وحسن العلاقات بين المسلمين .

والمبادىء والعبادات الإسلامية لا يظهر لها تأثير حقيقى فى حياة الإنسان إلا إذ اختمرت فى قلبه على مهل ونزلت بالتدريج من أعالى النظر السطحى إلى عالم المشاعر المستقر .

والإكراه يتطلب قوة وسلطانا فى يد من يفرض الاكراه وتكون الاستجابة إذن فيها شبهة الخوف من التبعات التى قد تترتب على المقاومة لتلك القوة أو ذلك السلطان والتأثير الذى يستقر فى نفس المكره المغلوب على أمره لا يمكن أن يساعد على بعث قلب متفتح للدين الجديد أو تغيير عقيدة ما مهما كانت فاسدة وينعكس ذلك على سلوك الناس وتصرفاتهم ويصبح الخوف من سلطان البشر لا من الله وبذلك ينعدم الوازع النفسى الذى هو لب العبادة وصريح الإيمان .

وانطلاقاً من هذا المفهوم كان الإسلام حريصاً على تقرير حرية التدين والعبادة بمعنى ألا يرغم إنسان على تغيير عقيدته بوسائل

القسر والعسف والإكراه ويترك المجال للبرهان والحوار العقلى .

ولكن الإسلام يخطو خطوات أبعد من ذلك أيضاً فهو يعلن لخصومه أنهم إن كانوا يريدون أن يثبتوا على دينهم ويرون ذلك من حقهم فعليهم أن يحترموا هذا للمسلمين أيضاً .

ففى سورة سبأ قول الله سبحانه وتعالى : « **قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدًى أو فى ضلال مبين . قل لا تُسألُون عما أجرمنا ولا نُسْأَلُ عما تعملون ، قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم** » . (سبأ : ٢٤ – ٢٦)

ومع كل ما فى الآية السابقة من توجيهات كريمة للدعاة إلى الله إلا أن أروع توجيه هو كيف يبدأ المؤمن حوارا مع مخالف أو معاند فيقولها له صريحة : « **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** » إنه لا يوهم المستمع من أول الأمر أنه كافر يراد دفعه إلى الإيمان ولكننا نحن الطرفين طلاب حقيقة ومادامت قضية الإيمان مطروحة للمناقشة فلا معنى أن نقفل باب المناقشة فى أول كلامنا حين نصدم المخالف برأينا فيه . إنه يدعى إلى الحوار دون أن يفرض إنسان على ذهنه أو عاطفته حكما يحكم به عليه فيثير نفوره ويجعله يتخذ موقف الدفاع والعناد .

هيا ! القضية قضية حق وباطل شيئان متناقضان لا يصدقان معاً فلابد أن يكون أحدنا على حق والآخر على باطل فهيا اثبت

حقك إن كان لك حق وبرهن عليه إن كنت صادقاً « **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** » .

والإسلام لا يخشى المناقشة العادلة لأنه واضح الحق حلاله بيّن وحرامه بين لذلك يلجأ إلى كل الوسائل ليفتح باب الحوار والنقاش لأنه إذا توافر جو الحرية والأمان للطرفين ظهر الحق دون شك « **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** » (الأنبياء : ١٨)

« **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** » (الإسراء : ٨١)

والحواجز التى تحول بين الإنسان وبين فطرته السليمة حواجز كثيرة يحرص الإسلام أولا على إزالتها حتى ينفسح المجال للفطرة لتؤكد حكم العقل وتظهره فى قلوب الناس .

فالظلم والجبر والتعنت والكبر والخيلاء وسلاطة اللسان وسوء معاملة الناس حواجز تحول بين الناس وبين تقبلهم للحق مهما كان ظاهر الوضوح ولذلك حرص الإسلام على نظافة قلوب الدعاة وحسن أخلاقهم وتراحمهم وأن يكونوا هم أنفسهم صورة لما يقولون :

« **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** » ويقول المصطفى ﷺ : « إن أحبكم

إلىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » .

هل نسخت آيات القتال فى الإسلام مبدأ عدم الإكراه ؟

إن مبدأ عدم إكراه الناس على دخول الإسلام يشمل كذلك إكراه الناس بالقتال بل إن هذا اللون من الإكراه لا علاقة له بالإسلام بتاتا وقد جاء جهل من جهل لخلطهم بين الدعوة إلى الله وبين رد الاعتداء . فالقتال فى الإسلام رد لاعتداء واقع على المسلمين . وإذا كان المسلمون قد بدأوا القتال فى بعض المواقف وتحركوا نحو ديار عدوهم فقد كان ذلك بعد إيمان راسخ أن الغدو قد قرر ضربهم وأعد العدة لهم فمن حقهم ألا ينتظروا الهجوم عليهم فإذا كان الأسلم لهم بدء الهجوم فليبدأوه لأن العدو لن يتوانى عن ضربهم فى أى لحظة إذا هم قصروا فى المبادأة وهذا لا يخرج عن كونه ردا للاعتداء المتوقع . ورد الاعتداء هذا بكل صوره لا يمكن أن يفهم على أنه نوع من الإكراه على الدخول فى الإسلام بل هو على العكس محاولة لعدم تمكين العدو من إكراه المسلم بالقتال ، على الفتنة .

وهذا معنى قوله تعالى فى سورة البقرة : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** » وقد فسر بعض المفسرين كلمة (فتنة) الواردة فى آية سورة البقرة السابقة بمعنى الشرك ومعنى

ذلك أن الآية توجب قتال المشركين حتى لا يبقى مشرك ومشركون ويسود الإسلام مهما كانوا مسالمين أو معاهدين وهذا بعيد الاحتمال فالفتنة المقصودة فى الآية هى محاولة المشركين والكافرين صرف الناس عن دين الله بالقوة والقهر والسيف ولذلك لابد من مواجهتهم بالقوة ردا لاعتدائهم على المسلمين وخوفا من صرفهم الناس عن دين الله حتى إذا انتهوا عن معاندتهم ولزموا حدودهم فقد تم المراد ولذلك فختام الآية السابقة هو قوله تعالى : « **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** » لأن تأديب المعتدين الظالمين الذين يحولون بالجبروت والقهر بين الناس وبين الله هو الذى يمنع الفتنة .

وفى تأويل كلمة الفتنة بالشرك تجوز كبير فقد وردت الآية فى مواضع أخرى بالقرآن بمعنى إرغام الناس على الارتداد . ففى سورة البروج : « **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** » . (سورة البروج : ١٠)

وجاء فى سورة النحل : « **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** » (آية رقم ١١٠)

وقال المفسرون فى معناها :

إن هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين

إذا صلحت أعمالهم وجاهدوا فى الله وصبروا فإن الله لغفور رحيم ٣٣ .

والآية مكملة لآية سابقة لها :

« **من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم** » والآيات إذن فى معرض توضيح مواقف مختلفة لقوم تعرضوا للفتنة فمنهم من كفر فعلا وشرح بالكفر صدرا ومنهم من قال كلمة الكفر كرها وقلبه متعلق بالإيمان مطمئن به .

وكلمة الفتنة هنا لا تفيد إلا الإكراه على ترك الدين ولا يمكن أبداً أن تؤول على أنها الشرك لأن ذلك قد يفتح الباب لإقرار نوع بغيض من إكراه الناس على الإسلام وهو القتال حتى لا يبقى على الأرض مشرك وأنه لا حياة لمشرك فى أى مكان فى الأرض مع وجود الإسلام وبذلك يرفع المسلمون السيف لنشر دعوتهم لا للدفاع عن العقيدة ورد الاعتداء ولكن للإكراه وهذا لا يجوز أبدا ومن هذا المفهوم الخاطىء خرجت الأفكار القائلة بأنه ما دام العالم الآن لا يقيم دولة الله فى الأرض ومادامت شريعة الله غير مطبقة فالعالم كله جاهلى مشرك ولابد أن تدخل الجماعات المؤمنة فى حرب ضد هذا العالم المشرك حتى ولو سالم المسلمين وهذا تعنت واضح وحرج كبير أمام أى دولة إسلامية يقيمها أمثال

هؤلاء المؤمنين بتلك التأويلات الغير سليمة فعليهم فى أول لحظة من لحظات قيام دولتهم أن يعلنوا الحرب على حوالى ثمانمائة مليون صينى بوذى وثلاثمائة مليون شيوعى أو أكثر وباقى الدول فى أوروبا وأمريكا إذا لم يعتبروا أهلها أهل كتاب ووضعوهم فى زمرة المشركين فما هذا بالله عليك ! كما أنه لا يجب أن يخفى على الأذهان أن آيات القتال لمنع الفتنة كآية البقرة هذه « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** » وآية سورة الأنفال « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** » هى آيات مدنية نزلت بالمدينة بعد أن أصبح للإسلام دولة وبعد أن أذن للمؤمنين بالقتال فى ظل نبى يمثل رئاسة هذه الدولة ولكن هذا الأمر ليس متروكا للأفراد أو للجماعات الصغيرة فلا يحق لإنسان أن يقاتل باسم الإسلام إلا فى ظل الدولة وبأمر أميرها . نعم هناك حالات قد يضطر فيها المؤمن إلى الدفاع عن دينه وعن نفسه ولكنه لا يبدأ بالاعتداء ولا يتعمد استثارة عدوه ولا يفتعل معركة . وهو حين يدافع عن نفسه كفرد فى مواقف تهدد فيها حياته ملتزم بأوامر الله فلا يغدر ولا يقتل حقدا ولا ضغينة ولا حبا فى القتال .

والدولة فى الإسلام مهمتها الأساسية الدعوة إلى الله بوسائل الدعوة المشروعة وليست السيادة العسكرية والتغلب إلا مرحلة من مراحل الدفاع لتحطيم العقبات أمام الخير ولكسر الحواجز التى

تحول بين القلوب وبين نور الله ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : **« الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »**[1] .

إن الله يمكنهم فى الأرض ليرتفع صوت المعروف فإذا كانوا قد رفعوا السيف اعتداء فأى معروف ينشدون وأى منكر يدفعون ؟

وبالرجوع إلى آية البقرة وآية الأنفال فى الأمر للدولة الإسلامية بالقتال لرد الفتنة نجد أن سياق الآيات قد وضع كثيراً من الضوابط التى تجعل هذا القتال مشروطا بشروط خاصة لا تخرج به عن أهداف الإسلام الكبرى فى السلام والسماحة .

فقبل آية القتال لرد الفتنة فى سورة البقرة هذه الآيات البينات .

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم
ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين
واقتلوهم حيث ثقفتموهم
وأخرجوهم من حيث أخرجوكم
ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه
فإن قاتلوكم فاقتلوهم
كذلك جزاء الكافرين

---

(١) الحج ٤١

فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله
فإن انتهو فلا عدوان إلا على الظالمين »[1]

انظر كيف تخللت آيات الأمر بالقتال تلك التحفظات الواضحة الدلالة على أن القتال ليس هو الأصل وأنه شيء اضطراري تحت وطأة إصرار العدو على القتال والاعتداء وصرف الناس بالقوة عن الدين وأنه فى مراحل هذا القتال لا تنسى الدولة مهمتها الأصلية فى السلام والعدل .

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم »

هذا هو التحفظ الأول . لا تقاتلوا إلا من يبدأونكم وإلا الذين يقاتلونكم فعلا فلا تقتل امرأة ولا يقتل طفل ولا يتعرض الجيش المسلم لقوم عكفوا إلى الصوامع وبيوت العبادة ولا لمدنيين لم يرفعوا السلاح .

وهؤلاء الذين يفكرون فى احتجاز رهائن عزل من السلاح لفرض مطالبهم كيف تسول لهم نفوسهم أنهم بذلك يخدمون الإسلام أو يرفعون لواء الدعوة إلى الله ؟

إن احتجاز الرهائن الأبرياء تحت تهديد القوة أو أسر مواطن مسالم أو التهديد بقتل إنسان لم يقاتل أو يشترك فى قتال ، كلها

---

(١) البقرة ١٩٠ - ١٩٣

أمور دخيلة على روح الإسلام بل هى أقرب فى روحها إلى وسائل جماعات الإرهاب التى لا تدين بدين ولا تؤمن بالله ومن تشبه بقوم فهو منهم .

أما التحفظ الثانى فواضح كل الوضوح .

« ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »

ثم تبين الآيات أن المبدأ كان مبدأ المعاملة بالمثل . فالمشركون والكفار الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم ولم يكتفوا بذلك بل تعقبوهم إلى دار هجرتهم الجديدة يؤلبون عليهم الأعداء يعاملون الآن بالمثل :

وأخرجوهم من حيث أخرجوكم »

وهذا تحفظ رابع :

« ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم »

إن جيوش الدولة المسلمة تتحرك إلى أرض العدو فإن طلب السلام أجيب إلى طلبه وإن أصر على القتال قوتل وقد تحرك الرسول ﷺ إلى مكة بجيش يتفجر حماسا وإيمانا لو طلب منهم أن يزيلوا الجبال لأزالوها فخرجت قريش تطلب السلام والصلح فأجيبت إلى طلبها ووقع النبى ﷺ معهم صلح الحديبية المشهور فى الوقت الذى رأى فيه المسلمون الفرصة سانحة لرد الصاع

صاعين إلى قريش الباغية العاتية .

وهذا تحفظ آخر :

« **فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم** »

إن انتهوا أى طلبوا السلام وكفوا عن إيذاء المؤمنين ومحاولة فتنتهم فلهم المغفرة والرحمة .

المغفرة إن دفعهم موقف المسلمين المتسامح إلى الدخول فى دين الله والرحمة إن جنحوا للسلم فحقن المؤمنون دماءهم بعد أن أظفرهم الله على عدوهم .

ثم تأتى آية القتال لرد الفتنة :

« **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** » ولكنها تتبع بالعدل والإنصاف :

« **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** »

تلك هى آية البقرة التى أساءوا تأويلها واتخذها البعض دليلا على أن المؤمن من حقه أن ينقض على غير المعتنقين لدينه لأن مجرد وجودهم فتنة والفتنة كما زعموا هى عدم الإيمان بالإسلام فيجب أن تتحرك الجماعات المؤمنة فى تنظيم حركى لا يهادن ولا يسالم مهمته ضرب الشرك فى أى مكان على الأرض فانظر كيف لووا بأعناق الآيات وتعسفوا فى فهمها وأولوها لتناسب رأيهم ولتتفق مع هواهم . « **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** » .

أما آية سورة الأنفال فقد وردت بعد سياق طويل وضح فيه أن مطالبة الدولة المسلمة بأن تهب لرد الفتنة كان بعد مرحلة طويلة من اعتداء العدو ومكره ومؤامراته وسخريته بالدين وصدهم الناس عن المسجد الحرام بعد أن فرضوا أنفسهم أولياء عليه وبعد أن أقيمت شعائر الكفر حول البيت الحرام بالصفير والتصفيق .

والمؤمنون فى المدينة وقد قامت لهم دولة وأصبح لهم جيش قادر على رد الاعتداء يتجهون إلى المسجد الحرام فى صلاتهم وهم يعلمون أن عدوا غادرا قد صد الناس عنه وأقام فيه شعائر الكفر والفسوق والعصيان بل تجرأ على السخرية بدين الله وتحقير المؤمنين :

« وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »
(الأنفال : ٣٢)

لقد تآمروا على رجل دعاهم إلى الله وتحمل فى سبيل الله سخريتهم وإيذاءهم ووضعوا الخطة لقتله أو أسره أو طرده من بيته وبلده :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (الأنفال : ٣٠)

ولما هاجر ﷺ واصلوا إعداد العدة وإنفاق المال استعدادا لمعركة أخرى تضرب فيها الدولة الجديدة فى عقر دارها « **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون** »

(الأنفال : ٣٦)

لكل هذه الأسباب وتحت هذه الظروف جاء الأمر للمسلمين لرد الفتنة مع تحفظات مؤكدة حتى لا يتحول المسلمون إلى قتلة غادرين . وشتان بين هذا وبين جماعة من الناس تجتمع فى الظلام لتقرر خطف إنسان برىء لم يدخل معهم معركة عدوان حقيقية ثم يقتل غيلة وغدرا وهو مكتوف أعزل من السلاح لا يملك حولا ولا طولا ظانين أنهم بذلك يدفعون عن الإسلام الفتنة ، وأى فتنة أكبر من هذا الصنيع وأى جرم أشد من قتل شخص أعزل حتى لو كان قد ملأ الدنيا هجوما عليهم ونقدا لأعمالهم .

وهذا صلوات الله وسلامه عليه يقول :

« لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم »

(رواه الترمذى والنسائى عن ابن عمرو)

وليس من فضول الكلام أو الاسترسال فيه أن نعود إلى تأكيد الحقائق الآتية التى تستخلص من كل ما ذكرناه سابقاً :

أولاً : أن القتال أو العنف ليس وسيلة من وسائل الدعوة

إلى الإسلام .

ثانياً : أن القتال لمنع الفتنة يكون بعد مرحلة تكوين الدولة الإسلامية ويكون القتال بأمر قائد هذه الدولة وبعد أن يرى أنه لا سبيل للدفاع عن كيان الدولة إلا بعث الجيوش .

ثالثاً : أن هذا الأمر بالقتال تحكمه ضوابط وتحفظات لا مناص من اعتبارها للحفاظ على قيم الإسلام كلها وتأكيد أن هدفه الأسمى ليس القتال بل السلام والسماحة .

رابعاً : أن هذا القتال أمر مؤقت فالسيوف تعود إلى أغمادها فوراً إذا انتهى العدو وكف عن عدوانه وأنه يجاب إلى الصلح إن طلب ذلك وعلى رئيس الدولة المسلمة ألا يتردد فى حقن الدماء فهو رسول إلى الخير وليس

مبدأ عدم الإكراه فى الدعوة مبدأ ثابت فى كل مراحلها :

ربما قيل إن مبدأ عدم الإكراه هذا لم يكن قد تقرر إلا فى العهد المكى حين كان المسلمون قلة مستضعفة وأنه بعد نزول الإذن بالقتال كان لابد للمسلمين ألا يقبلوا وجود الشرك أو الكفر فى أى مكان مسالما كان أم غير مسالم .

ولكن الملاحظ فى القرآن الكريم أنه قد قرر مبدأ عدم الإكراه فى الدين فى مختلف أدوار التنزيل المكى والمدنى عدة مرات وبأساليب متنوعة وأن أسلوب الدعوة إلى الله فى الآيات المكية لا يختلف عنه فى الآيات المدنية .

أى أن الانتقال من مكة إلى المدينة وإقامة الدولة لم يستتبعه تغيير فى نظام الدعوة ووسائلها وهذا واضح من معانى الآيات فى القرآن الكريم .

ففى سورة يونس المكية يقول الله سبحانه وتعالى :

« وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون »(يونس : ٤١)

وفى سورة الكهف : **« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »** (الكهف : ٢٩)

وفى سورة الأنبياء : « **قل إنما يوحى إلىّ إنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون . فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون . إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون . وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** » (الأنبياء ١٠٨ : ١١٢)

وفى سورة النمل : « **إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين** »[١] ففى الأمثلة الأربعة السابقة من آيات القرآن المكى ما يدل على أن أسلوب الحوار مع الكافرين والمشركين كان أسلوبا هادئا خاليا من الانفعال وأن الله هو الذى أمر رسوله بالتبليغ .

« **قل لى عملى ولكم عملكم** » « **وقل الحق من ربكم** » « **قل إنما يوحى إلىّ** » وهكذا .

فلابد للمسلم أن يبلغ رسالة الله وأن يقول الحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . عليه أن يؤدى واجبه فى النصح وألا يقصر فى التبليغ ولكن ليس عليه أن يستجيب الناس مادام يستفرغ جهده فى التوجيه على قدر طاقته « **فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر** » (الغاشية ٢١ ، ٢٢)

أما فى القرآن المدنى فقد ظل ذلك المبدأ يتردد حتى اخر سورة نزلت بالمدينة بنفس الأسلوب الهادىء الخالى من الانفعال : أسلوب المؤمن الواثق من سلامة عقيدته ومن قوة تأثيرها فى النفوس لو أفسح المجال للتلقى وهو لذلك حريص على ألا يجعل بينه وبين المستمع شيئاً يوغر صدره أو يحول بينه وبين الاستجابة .

ففى سورة البقرة هذا القرار الربانى الحاسم :

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » (البقرة : ٢٥٦)

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية .. أى لا تكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحدا على الدخول فيه بل من هداه الله إلى الإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرها مقسوراً . وقال صاحب تفسير الكشاف « أى لم يجر الله أمر الإيمان على الاجبار ولكن على التمكن والاختيار واستشهد بقول الله تعالى : **« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »**[1] أى أن الله لو

---

(١) سورة يونس : ٩٩

شاء لأرغم الناس على الإيمان ولكنه سبحانه وتعالى لم يفعل وبنى الأمر على الاختيار .

سبب نزول آية عدم الإكراه :

ونعود إلى سبب نزول آية البقرة « **لا إكراه فى الدين** » فقد ذكر المفسرون أن المرأة من الأنصار قبل الهجرة تكون مقلاة لا يعيش لها ولد فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده أى تجعله يعتنق اليهودية فلما أجلى رسول الله ﷺ يهود بنى النضير عن المدينة كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا لا ندع أبناءنا ورغبوا فى إكراههم على ترك اليهودية فنزلت الآية تمنع ذلك .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الأنصار قالوا إنما جعلناهم على دين اليهود حين كنا نرى أن دينهم أفضل من ديننا ولكن جاء الله بالإسلام فلنكرهنهم . فلما نزلت الآية خير رسول الله ﷺ الأبناء فى قبول الإسلام أو البقاء على دينهم .

وهكذا يدعى أهل الكتاب إلى دين الله فإن قبلوا الدخول فى الإسلام فبها ونعمت وأن أبوا ألزموا الحجة فقط . ففى سورة آل عمران . « **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا**

مسلمون » (آل عمران : ٦٤)

وفى نفس السورة كذلك : « **فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد** » (آل عمران : ٢٠)

إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيراً :

وقد أشار القرآن فى مواضع مختلفة إلى أن مهمة الرسول ﷺ هى التبشير والإنذار ، ولا يمكن أن يكون العسف والإرغام على الدخول فى الدين هى مهمة المبشر والمنذر فالذى يبشر إنما يعد بحسن الثواب إذا استجاب السامع والمنذر معناه أن قوما لم يستجيبوا له فأنذرهم بمغبة فعلهم وعاقبة انصرافهم عنه وحذرهم سوء الحساب . وتلك الصفة التى وصف بها محمد ﷺ وهو أنه المبشر المنذر تحدد أسلوب الدعوة على أنها مواجهة فكرية وإلزام للحجة دون تعسف لأن الأسلوب لو كان أسلوب إكراه لما كان هناك بشير ولا نذير .

« **يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا** » (الأحزاب : ٤٦ ، ٤٧)

نزلت هذه الآية فى سورة الأحزاب أى فى السنة الخامسة للهجرة وبعد أن خاض المسلمون معارك بدر وأحد وبعد أن تقرر

القتال بأربع سنوات .

وفى سورة الفتح التى نزلت فى غزوة الحديبية فى السنة السادسة للهجرة « **إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا** » (الفتح : ٨ ، ٩)

وفى سورة المائدة « **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير** » .
(المائدة : ١٩)

وفى سورة الممتحنة وهى سورة مدنية يقرر الإسلام حقوقا لغير المسلمين فى الدولة الإسلامية ماداموا لا يعتدون على المسلمين ولا يمالئون العدو .

« **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** » وعلى هذا فغير المحارب المعتدى له فى رقاب المسلمين حقوق أخصها البر والقسط . والبر والقسط كلمتان عامتان شاملتان لكل أنواع الخير والمعروف .

وإن تناول القرآن بشيء من الفطنة ليظهر أن آيات القرآن الكريم تناولت المعارضين له والكافرين به بأساليب شتى ليس من بينها قط إرغام أحد على قبول الإسلام رغم أنفه .

ولكن الإسلام فى نفس الوقت حين يقدم ذلك يطلب من خصومه إذا لم يقتنعوا به ألا يصرفوا امرأ عن دين الإسلام إذا انشرح له صدره وألا يحاولوا فتنته عن الدين بأساليب القهر والإرهاب وإلا تعرضوا للعقاب ورفع فى وجوههم السيف تحقيقا لقول الله سبحانه وتعالى :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » .

وإن الكلمات التى ترددت فى صدر الإسلام عن احترام مبدأ افساح الحرية للناس فى العقيدة من أمثال « لى عملى ولكم عملكم » ظلت تتردد حتى أواخر العهد المدنى ويخاطب بها كل إنسان .

ولا يخطر ببال إنسان أن ذلك معناه مهادنة من الإسلام لدين أو عقيدة فاسدة .

ولكن الإسلام الذى هو دين الفطرة السليمة لم يكن يخشى أبدا نتيجة الاختيار إذا ترك الناس أحرارا لأنه إذا ارتفع الضغط وتحررت النفس من الخوف والظلم فسوف تستجيب لنداء الفطرة قطعا وكل الانحرافات والكوارث التى أصابت أهل الأديان السابقة

للإسلام جاءت من هوى متبع وشح مطاع صرف القلوب عن الحق .

والإسلام كذلك لم يفرض على النصرانى أن يترك نصرانيته أو على اليهودى أن يترك يهوديته بل طالب كليهما مادام يؤثر دينه القديم أن يدع الإسلام وشأنه يعتنقه من يعتنقه دون تهجم أو جدل . ولقد أدرك المعاندون للإسلام من أول الأمر هذه الحقيقة فاستخدموا أسلوب القهر والضغط والإرهاب لفتنة المسلمين الأوائل عن دينهم وللدفاع عن معتقداتهم وتقاليدهم .

والمسلمون الذين نادوا بأن يتركوا أحرارا فى اعتناق عقيدة آمنوا أنها الحق وعابوا على أهل الباطل أن يكون سلاحهم الجحود والتعنت لا يمكن أن يتشبهوا بأعداء الله أو يحذوا حذوهم فى فرض دينهم بالإكراه والعنت .

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » ولم تكن هذه سياسة اقتضتها مرحلة من مراحل الدعوة الأولى حتى إذا عز الإسلام نسخت . بل ظل هذا المبدأ يتأكد فترة بعد أخرى حتى نهاية العصر المدنى .

ولقد ختمت سورة التوبة التى أعلنت الحرب على المشركين وطوائف من أهل الكتاب بقوله تعالى : « **فإن تولوا فقل حسبى**

الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » (التوبة : ١٢٩)

وفى سورة المائدة وهى آخر السور نزولا : « **ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** » وفى نفس السورة : « **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين** » هكذا البلاغ المبين وكيف يكون البلاغ مبينا إن كان بالعسف والقهر والضغط والإرهاب إنما كان البلاغ مبينا بالرحمة والسماحة والخلق العظيم .

لا اعتــداء !!

ومن الأوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون فى نفوس الناس بالقوة والقهر ولكن لها وسائلها المعروفة التى لا تلتمس إلا بها فمنها البرهان العقلى والقدوة والأسوة الصالحة الحسنة إلى غير ذلك مما أشار إليه القرآن فى مرات متعددة .

ولذلك لم يلجأ الإسلام الذى هو دين البحث والنظر والتأمل إلى إرغام من لا يدينون به على الدخول فى الدين أو قسر من قصرت عقولهم عن إدراك جمال العقيدة الإسلامية أو تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها وإنما يأخذ بيدهم إلى معرفة الله والتدبر فى خلقه :

« **قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم**

تتفكروا » وقد أرانا القرآن وأرتنا السنة أن الرسول قد اكتفى فى حقن دماء أهل الكتاب واحترام حقوقهم بالجزية إذا أبوا الإسلام يدفعونها فى سبيل حماية أرواحهم وأموالهم واستمتاعهم بما للمسلمين وما عليهم فهم إذا دفعوها كان لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم منها ما عليهم .

والواقع أن الإسلام لم يشتبك فى قتال مع النصارى أو اليهود إلا بعد أن وصل هؤلاء وأولئك إلى منزلة فى السلوك والسياسة عريت عن الشرف والعدالة وبعدت عن مرضاة الله كما يصورها موسى وعيسى عليهما السلام فهم تمردوا على أنبيائهم قبل أن يتمردوا على محمد ﷺ وهدموا حدود الحلال والحرام كما آلت إليهم قبل أن يهدموا حدود الحلال والحرام كما بينها القرآن الكريم وكما شرحها النبى ﷺ ومع ذلك فإن القتال مع المشركين أو الكافرين أو أهل الكتاب لم يتعارض مع الحدود التى اشترطها الإسلام لنشر الدعوة ولم يكن القتال إلا رداً على اعتداء أو دفعا لفتنة أشعل الخصوم أوار نارها ولم يسن الاعتداء فى الإسلام مطلقا ولا أمرت به آية أو حرض عليه حديث : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** »

(البقرة : ١٩٠)

فلا يقاتل المسلم إلا من بدأه بالقتال .. وفوق ذلك يخلو القتال من الاعتداء ليكون فقط صدا لقوة غاشمة بدأت بالاعتداء

وحماية لدين قويم يريد الباطل أن يمحوه .

العدل والصبر من أخلاق الدعاة :

ومع مبدأ عدم الاعتداء يتأكد العدل الذى هو قمة ما يطمح إليه كل داع إلى الله وكل مدافع عن عقيدة وكل أمة تبغى الخير والفلاح والاعتداء يمحو فى طريقه كل وسائل إقامة العدل الذى أمر به الله : « **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى** » (النحل : ٩٠)

كما أن المسلمين حتى وهم فى موقف الدفاع عن دينهم وقد استعرت نار الخصومة والبغى فى قلوب أعدائهم مأمورون بأن يكون القسط والعدل ديدنهم : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** » (المائدة : ٨)

وقد راعى الإسلام لتحقيق توطين النفوس على عدم الاعتداء مرانها على الصبر والضبط والصفح لأن النفوس أمارة بالسوء نزاعة إلى الهوى وتوجيهات الإسلام وقواعد التربية فيه يكمل بعضها بعضا ولذلك كان الأمر بضبط النفوس والصبر وحسن تقدير المواقف وسيلة إلى تحقيق العدل وعدم الاعتداء .

ولا يزال كل داعية إلى الإسلام مطالب إلى هذا اليوم وإلى

ما بعده بإنفاذ قوله عز وجل : « **فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون** » (الروم : ٦٠)

وقوله تعالى : « **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبارالسجود . واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** » (سورة ق آيات ٣٩ : ٤٥)

فقد بدأت هذه الآيات فى ختام سورة ق بالأمر بالصبر على ما يقولون وما أشنع ما كانوا يقولون ثم اختتمت بأن الله أعلم بهذا الذى يقولونه وليس على رسول الله أن يرد القول بأى اعتداء بل يرد القول الفاسد بالحجة البينة لأنه ليس عليهم بجبار وإنما مهمته فى هذا المجال أن يذكر بالقرآن فعسى أن يكونوا ممن يخافون الوعيد .

الله وحده الذى يحكم بين العباد :

وما أجمل أن يعمد القرآن إلى إراحة القلوب وبث الطمأنينة فى نفس كل مسلم يدعوا إلى الله فيواجه بالجحود ، بأن يذكره بنهاية مطاف هؤلاء المكابرين وأن هناك ثوابا وعقابا وأن الساعة موعد محتوم يجنون فيه ثمار عنادهم وكفرهم إن استمروا عليه . ولذلك لا يحس المسلم مرارة إعراض الناس عنه ولا يجثم على صدره الإحساس بالهوان فتنطفىء جذوة الحماس فى قلبه أو يختصر الطريق إلى الدعة والسكون تاركا الحبل على الغارب أو يتسرع إلى عمل أحمق قد تكون خاتمته وبالا ولذلك يقول سبحانه :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا . إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا » الكهف

ويقول : **« وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل »** الحجر

ويقول : **« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون »** الزخرف

القتال فى الإسلام ليس لنشر الدعوة :

وقد ظن كثير من علماء المسلمين ومفسرى القرآن أن التحفظ الوارد فى آية سورة البقرة « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** » .

قد نسخ بالآيات التى وردت فى صدر سورة التوبة والتى تأمر بقتال المشركين بدون هوادة إلى أن يسلموا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ثم بآية « وقاتلوا المشركين كافة » والتى يسميها بعض العلماء والمفسرين بآية السيف .

كما فسر الكثيرون كلمة فتنة الواردة فى آية سورة البقرة هذه « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** » لا يبقى شرك ومشركون ويسود الإسلام مهما كانوا مسالمين أو معاهدين وهذا بعيد الاحتمال . والقول بالنسخ يثير موضوعا من أهم الموضوعات التى تحتاج إلى بيان والتى يجب أن تراجع وتفسر التفسير الذى لا يتعارض مع روح الإسلام وقدسية رسالته لأن العلم بالناسخ والمنسوخ علم جليل إن القول بالنسخ بلا علم ودراية يعنى أن هناك فى القرآن آيات معطلة الأحكام بقيت فى المصحف للذكرى والتاريخ تقرأ للتبرك فقط لا للعمل بها والذين يأخذون بالنسخ يزعمون أن

الناسخ يبطل ما قبله من أحكام .

والدافع إلى ذلك فيما يبدو هو دفع ما يتوهم من تناقض بين ظواهر الآى :

فقد يقع فى القرآن تفصيل بعد إجمال أو تقييد بعد إطلاق أو تخصيص بعد تعميم فتثور شبهة التعارض ودفع ذلك التعارض لا يمكن أن يكون بالقول بإبطال حكم سابق بحكم لاحق . وقد فتح ذلك الزعم الباب لكل سقيم التفكير ليتلمس الطعن فى رسالة الإسلام ولذلك زعم كثير من المستشرقين اعتمادا على ما ورد فى كتب التفسير أن محمدا ﷺ لم يقف عند مبدأ لكم دينكم ولى دين إلا فى ظروف كان المسلمون فيها ضعفاء حتى إذا قوى بعد الهجرة شرع فى القتال ولم يكن يقبل من الناس إلا الإسلام أو القتل .

وليس المجال هنا مجال مناقشة موضوع النسخ كباب فى علم الأصول ولكن الآيات التى نحن بصددها الآن لا تحتمل نسخا حتى مع تسليمنا بجواز مبدأ النسخ فلو أخذ الموضوع ككل فالسياق يشرح نفسه ويفسر بعضه بعضا دون ما حاجة إلى افتراض التعارض ومحاولة دفعه بالنسخ .

وتشريعات القرآن النازلة فى أمر ما ترتب ترتيبا دقيقا بحيث تنفرد كل آية بالعمل فى المجال المهيأ لها فإذا ذهب هذا المجال

وجاء غيره تلقفته آية أخرى بتوجيه يناسبه .

فإذا قيل إن آية السيف التى تدعو إلى قتال المشركين كافة تلغى كل ما سبقها من آيات بينات خاصة بمعاملة الكفار كان هذا نوعا من الجرأة الغريبة على الوحى وحيف على أسلوب القرآن المحكم .

وإذا رجعنا إلى ما قاله المفسرون فى تفسير آية سورة البقرة : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** » نجدهم يسارعون إلى القول أنها نسخت أى أنه يمكن البدء بقتال عدو غير معتد . وقد نقل عن أبى العالية قوله : إنها أول آية نزلت فى القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة بقوله تعالى : « **اقتلوا المشركين** » وقوله : « **وقاتلوا المشركين كافة** » وقيل إنه نسخ بها سبعون آية .

وشرح الموضوع على وجهه الحق الذى يتبادر من نصوص القرآن ووقائع السيرة وأحداث الفتح الإسلامى فى عهد أبى بكر وعمر كفيل ببيان الحقيقة .

لا جدال فى أن القتال فى الإسلام ليس وسيلة من وسائل الدعوة وجمع الناس وحفزهم على اعتناق الإسلام . إنما شرع القتال للدفاع عن حرية الدعوة بمقابلة العدوان بالقوة حتى

لا تكون فتنة وحتى ينفسح المجال الحر أمام من يريد الدخول فى الإسلام بلا خوف ولا رهبة .

قبل أن يشرع القتال كان المشركون يقاتلون المسلمين ويفتنون من يستطيعون فتنته منهم بالجبر والإكراه ويصدون عن سبل الله ويعطلون سير الدعوة ويضطرون المسلمين إلى الخروج من موطنهم مرغمين .

فلما شرع القتال كان إذنا لهؤلاء الذين يتعرضون للأذى والإرهاب أن يدفعوا عن أنفسهم البغى والاعتداء .

إن أول آيات وردت فى هذا الصدد هى آيات سورة الحج : « **إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** » (سورة الحج آيات ٣٨ — ٤٠)

والمتدبر لآيات سورة البقرة التى بدأت بقوله تعالى : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** » . يلاحظ أن الآيات بدأت بتحديد القاعدة الأساسية لنوع القتال الذى يريده الله وهو أولا لا قتال إلا مع من

رفع السيف مقاتلا للمسلمين .

وثانياً : إذا قاتلنا فعلا فيجب أن تنتفى من القتال كل أنواع الاعتداء .

وبناء على ذلك وحين يضع المقاتل المسلم نصب عينيه هذين الشرطين ويوطن النفس على الالتزام بهذا الأسلوب فسوف يعى جيداً مدلول الآيات التالية :

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل » وليس القتل هنا مطلق القتل ولكن قتل المعتدى الذى رفع السيف فعلا واستنفذت معه كل وسائل المسالمة وحقن الدماء وحينئذ يكون إثمه على نفسه ويجب أن يقتل لأنه أراد القتل وسعى إليه .

ودفع المسلمين للأذى بهذا الشكل يسلم إلى نتيجة واضحة هى رفع الخوف عن القلوب وإفساح المجال للمترددين الذين يرقبون الموقف حتى يقرروا موقفهم من الدين الجديد . كذلك يمكن أن يترك المسلم حديث العهد بالإسلام للفتنة والاعتداء بعد أن ذاق المسلمون الأوائل الويلات فى مكة قبل الهجرة فاحتسبوها لله صابرين راضين ولكن الدولة المسلمة قد قامت اليوم فى المدينة وعليها أن تسارع بدفع الفتنة وحماية مواطنيها وهو مبدأ مقرر اليوم على المستوى الدولى فهناك قوانين دولية معترف بها لحماية رعايا الدول الأخرى ورعاية شئونهم فإذا تعرض مواطنون لدولة

ما للعسف والإرهاب على يد أفراد من جماعة أو على يد دولة أخرى كان من حق الدولة التى اعتدى على مواطنيها أن تحميهم بكافة ألوان الحماية المشروعة .

وكل هذه الأمور لا علاقة لها بنشر الدعوة الإسلامية وإنما هى كما قلنا رد لاعتداء أو حماية لمواطن مسلم اختار الإسلام فأرغموه بالقوة على الارتداد أو حاولوا ارغامه .

لوموا أنفسكم :

إن مرحلة القتال فى الإسلام كانت تالية لمرحلة سابقة استنفذت فيها كل وسائل الدعوة السلمية القائمة على العدل والرحمة المعتمدة على البرهان العقلى والدليل المنطقى .

الذين ينادون اليوم بالعنف لإرغام الناس على اتباع تعاليم الإسلام هل استنفذوا كل وسائل الدعوة السلمية القائمة على العرض الجميل لمعانى الإسلام ؟ هل اتبعوا سنن الدعاة الصالحين بدءا ، برسول الله ﷺ ؟ هل دفع الفتنة عن المسلمين يقوم بها أفراد أو جماعات بالطريقة التى تحلو لهم أم أن الأمر بالقتال حتى لا تكون فتنة كان موجها من القرآن إلى قائد الدولة الإسلامية وحاكمها بعد أن أصبح للإسلام دولة تذود عن حياضه ؟

من يستطيع أن يقول إن العالم اليوم قد رأى فى المسلمين الصورة الجميلة التى رأتها شعوب العالم فى دولة المدينة ثم أبى ألا قتال المسلمين والقضاء عليهم .

كيف يكون العالم كله بدوله وشعوبه كما يزعم البعض ممن تصدوا للدفاع عن دعوة الإسلام كافرا مهدر الدم والمسلمون أنفسهم قد قصروا فى حق دينهم أبلغ تقصير ولم يقدموا للعالم فى

العصر الحديث إلا صورة مزرية من خلافات وفرق ومذاهب شتى وبعض طقوس هى أقرب إلى الوثنية والشرك منها إلى الإسلام .

عود إلى موضوع الفتنة فى سورة البقرة :

لقد شرع الله القتال للمسلمين كأفراد فى دولة تعين لهم الأمير وترسم لهم الخطة وتحدد لهم القصد لمنع اعتداء متعمد واضح واستفزاز مرسوم مقصود ولمديد العون لقوم يفتنون عن ضعف ، ولا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا .

ولم يكن القتال لمحو كل وجود لمن لا يدين دين الإسلام وهو ما يفهم من تأويل كلمة الفتنة بالشرك . ولو تدبر هؤلاء باقى السياق فى سورة البقرة من أول قوله تعالى : « **وقاتلوا فى سبيل الله** » لأدركوا أنهم تجاوزوا الحد وقالوا على الله مالا يعلمون .

انظر رعاك الله وتدبر قوله تعالى : « **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم** » .

انتهوا عن ماذا ؟ قال بعض المفسرين انتهوا عن الشرك ودخلوا الإسلام وهو تأويل آخر اقتضاه تأويلهم الأول والمعنى لا يحتمل ضرورة هذا التأويل فالانتهاء هنا انتهاء عن العدوان وقتال المؤمنين ومحاولة صدهم عن الدين القويم . وباقى السياق كما يلى :

« **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا**

فلا عدوان إلا على الظالمين » .

أصر أصحاب التأويل الأول على أن حتى هنا بمعنى لغاية أى أن القتال لا يكف إلا إذا دخلوا الإسلام .

ووقائع السيرة والقتال فى عهد أبى بكر وعمر تنفى هذا الزعم . فمثلا : لقد تربص عرب الحيرة بالدولة الجديدة فى المدينة وظهروا كوجود خطر على كيان دولة الإسلام مما اقتضى أن يوجه أبو بكر جيشا إلى أطراف العراق بقيادة خالد ومعه المثنى بن حارثة فأخضع القبائل العربية التى كانت تقيم جنوبى نهر الفرات وما لبث العرب أن تقهقروا بعد ذلك لضراوة سكان تلك البقاع واعتمادهم على جيش الفرس الكثيف الذى أعده يزدجرد الثالث وظلت الحال على ذلك إلى آخر أيام أبى بكر حتى جاء عمر بن الخطاب وكتب المثنى بن حارثة يخبره بزيادة الاضطراب وخوف الهجوم من فارس إلى الحيرة إلى قلب الدولة الإسلامية وكان كل هذا كفيلا بأن لا يقبل المسلمون من سكان تلك البقاع بعد فتحها فى معارك عنيفة ضارية إلا الإسلام لا سيما وأن الدائرة كادت تدور على المسلمين فى بعض المعارك لولا براعة سعد بن أبى وقاص واستبسال المسلمين ومع ذلك خير الناس بين الإسلام أو الجزية بعد الفتح ، وبين الإسلام أو الجزية أو القتال قبل القتال .

ولو كان القرآن كما أولوه اليوم لا يقبل من الناس إلا الإسلام لكان تصرف أبي بكر وعمر مع كل شعوب تلك المنطقة تصرفا بعيدا عن توجيه القرآن وروح الإسلام .

آية السيف :

من الخطأ البيّن فى تفسير القرآن أو استنباط أى قاعدة منه أو من أى دليل شرعى آخر أن يفترض الإنسان مسبقا رأيا من الآراء تميل إليه نفسه ثم يأخذ فى تأويل الآيات بما يوافق هواه ، حتى ولو ظن أنه على صواب ، فإذا أعياه التأويل حكم بالنسخ مع أن الأصل أن يؤخذ بما تدل عليه ظواهر الآيات المحكمة وألا يصرف المعنى عن حقيقته إلا بقرينة لا شبهة فيها وفى حالة الظن أن هناك تعارضا يرجع إلى باقى الآيات فى نفس الموضوع فى القرآن كله ثم يدفع التعارض بالطرق الأصولية التى وضعها علماء الأصول- ولقد أسرف بعض مفسرى القرآن فى التأويل والكلام عن الناسخ والمنسوخ فى مواضع لا تحتمل تأويلا ولا نسخا وإن جاز التأويل والنسخ . مثال ذلك أنهم حين أولوا كلمة الفتنة بالشرك وقالوا إن آية السيف « **وقاتلوا المشركين كافة** » قد نسخت كل ما عداها من آيات القرآن فى نفس موضوع قتال المشركين وقفوا أمام آيات من صدر صورة محمد المعروفة بسورة القتال تأمر ، بعد القتال ، بالمن على الأسرى بإطلاق سراحهم أو بأخذ الفدية وتركهم يعودون إلى ديارهم وحكموا بنسخها كذلك لأن هناك

تعارضا بين المن والفدية وبين قتل المشركين كافة .

والآيات هى : « **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداءا حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض** » .

(سورة محمد آية رقم : ٤)

ولذلك نسبوا إلى مجاهد قوله فى تفسير « حتى تضع الحرب أوزارها » أى حتى لا يكون دين غير دين الإسلام .

ومعنى تضع الحرب أوزارها فى اللغة أى ينتهى القتال لأن أوزار الحرب آلاتها وأثقالها وليس كما قال مجاهد وغيره حتى يباد كل من لا يدين دين الإسلام .

ولكن المفسرين لم يجمعوا على ذلك الزعم بل هدى الله الكثيرين لوضع الأمور فى نصابها دون التعسف فى تفسير الآيات . وأخذ آخرون موقفا وسطا مثل ما نقل عن الفراء : المعنى حتى يؤمنوا ويذهب الكفر أى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم . فبقوله أو مسالم أجاز أن يبقى غير المسلم على دينه إن كان مسالما .

وقال آخرون : المعنى حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم وهو سلاحهم بالهزيمة والموادعة فأصبحت الغاية هنا أن ينتهى القتال

بإلقاء العدو للسلاح مهزوما أو موادعا وبعض الذين قالوا بالنسخ قالوا إن الآية منسوخة فى أهل الأوثان فقط دون غيرهم ولا أدرى كيف تم لهم ذلك ولكن اشتبط آخرون وقالوا يجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه كالنساء والصبيان .

واشتهر عند أبى حنيفة قوله يقتل المشركون إلا من تؤخذ منه الجزية .

والرأى الأرجح عند الجمهور أن الآية محكمة وأن الإمام مخير أثناء المعركة بين القتل والأسر بعد إثخان العدو ضربا وبعد الأسر مخير بين المن والفداء وهذا قول مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وهذا يرجح لأنه يتفق مع عمل النبى والصحابة من بعده .

وقال سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف .

وأيا كان الرأى فإن الرأى الأول الذى يعتبر المعركة قائمة حتى ينتهى المسلمون من كل أهل الملل الأخرى رأى متعنت خاضع للهوى وإن من أخذ بهذا الرأى من معاصرى الدعاة يزعمون أن العالم كله مشرك كافر حتى المتسمين باسم الإسلام والناطقين بالشهادة إلا قلة بسيطة تدين برأيهم وتذهب مذاهبهم فى تكفير الخلق وإباحة دمائهم .

ويترتب على رأى هؤلاء الذين أخذوا بمذهب قتال المشركين

كافة أنه إذا قامت دولة إسلامية فى مكان ما من الأرض فعليها كما قلنا سابقا أن تعلن الحرب فوراً على ثمانمائة مليون صينى والدول الشيوعية والهند وألا تضع الحرب أزوارها حتى تنتهى من كل هؤلاء وهى مغالاة لا تتفق مع روح الإسلام الذى يفسح المجال للناس للدخول فى دين الله عن حب واقتناع وأن يكون المسلمون قدوة طيبة صالحة إذا تمكنوا فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهو عن المنكر .

وهناك فرق كبير بين مشرك أو صاحب ملة غير ملة الإسلام ولكنه لا يتعرض بالاعتداء والأذى لمسلم أو يحاول قسرا إخراجه من الدين الحنيف وبين مشرك متربص ينتهز الفرص للكيد والاعتداء . الأول رغم شركه وكفره تحميه حقوق فرضها له الإسلام أما الثانى فهو الذى يجب أن تكال له الصاع صاعين وأن يتعقبه المسلمون بالقتل أو التشريد حتى يكف عن العدوان وذلك لا يكون إلا فى ظل سلطة الدولة الإسلامية القائمة وأمر أميرها المبايع من جماهير المسلمين فالدولة هى المسئولة عن ذلك أمام الله وليس مدعوا الزعامة أو الإمارة من أى فئة أو جماعة أو هيئة .

وكما وقف القدماء عند آية السيف هذه « **وقاتلوا المشركين كافة** » وزعموا أنها أمر من الله ألا يبقى علىَ قيد الحياة مشرك فى ظل دولة الإسلام أو خارج حدودها مادامت يد البطش تستطيع

أن تصل إليه ، جاءت فئات أخرى فى العصر الحديث تمثل ألوانا من التزمت والتعصب أجازت العنف دفاعا عن الدين ونشرا لدعوته .

فمادام غير المسلم مهدر الدم تفسيرا لآية السيف فى سورة التوبة فعلى الجماعات الداعية إلى الإسلام أن تعلن الحرب من أول الأمر على كل من عداها من جماعات أو مجتمعات أو دول لا تدين بالإسلام وأن تكون الحرب بلا مهادنة وأن يقطع المسلم صلته بكل من لا يدين برأيه هذا حتى أواصر الأبوة تفقد قيمتها وقدسيتها .

وفى أماكن متفرقة وأوقات مختلفة ظهرت هذه الدعوات وبث أنصارها هذه الآراء فى قلوب الناشئة من شباب الإسلام وحدثت صدامات بين بعض تلك الجماعات وبين السلطات الحاكمة مما عاق سير ركب الإسلام ووصم الداعين له بالغلو والتطرف والتعسف ولكن الإسلام لم يكن فى يوم من الأيام إعجاب بالرأى وتحكيم للهوى ولو كان هؤلاء وأولئك يتبعون نداء الإسلام حقاً لعادوا إلى قول الله سبحانه وتعالى : « **فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** » (النساء : ٥٩)

ومعنى الرد إلى الله والرسول أن نعود إلى آيات الله البينات وإلى سنة نبيه نستوضح فيها ما خفى علينا ونحتكم إليها فيما

تنازعنا فيه ولكن حتى هذا لا يلقى ترحيبا عند الذين يريدون تحكيم الهوى فما أعجب أن تجمد العقول أمام نور القرآن .

« أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا » (سورة الفرقان : ٤٣)

وآية السيف فى سورة التوبة لا تحتمل كل هذا التأويل وكل هذا التعسف ولكنها آية انتزعت من سياقها وبترت أصولها .

وآيات القرآن يكمل بعضها بعضا ويفسر بعضها بعضا .

ولنعد إلى آية السيف هذه ونستطلع معانيها في هدى الآيات الأخرى السابقة والتالية لها .

الأهداف الحقيقية لآيات القتال فى سورة التوبة :

آيات سورة التوبة التى تعلن البراءة من المشركين وتأمر بقتالهم إلى أن يتوبوا ويؤمنوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة تخللها وجاء معها استثناءات تجعل ذلك الإعلان والأمر محصورا فى المشركين المعتدين والناكثين لعهودهم .

ولا يمكن لأحد أن يتصور أن فى قوله تعالى : « **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** » (سورة التوبة : ١)

تحمل معنى نقض المسلمين لعهودهم مع المشركين حتى ولو كانوا مسالمين فإن البراءة هنا من هؤلاء الناكثين للعهود والسياق يدل على ذلك :

« **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين** » (سورة التوبة : ٤)

فقد استثنى الله هنا من البراءة المشركين المسالمين واسمع إلى قوله تعالى : « **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** » (التوبة : ٦)

فالله العزيز الرحيم يطلب من المسلم أن يجير المشرك عسى أن يكون ذلك داعية إلى هدايته سواء السبيل بسماعه كلام الله فالمشركون لا يعلمون حقيقة الإيمان وقد يصرفهم عنه تقديس خاطيء لما جرى عليه الآباء أو فائدة دنيوية عاجلة ويتضمن الأمر بإجارة المشرك إقرار بسماحة الإسلام واعتراف بأن مجرد الشرك لا يعنى امتشاق الحسام المسلم للقتال فالمشرك المسالم له أن يستجير بالمسلم وعلى المسلم حمايته وإبلاغه مأمنه وتلك نظرة ربانية عظيمة تدرك حق الإدراك طبائع النفوس وتضع فى المقام الأول استنفاد كل وسائل الهداية والإرشاد قبل التفكير فى استعمال القوة .

وقد طلع علينا فى أوقات مختلفة من تاريخ الدعوة الإسلامية قوم ينادون باعتزال الناس وتكفيرهم حتى الناطق بالشهادتين لأنهم يتصورونهم كفارا لا يحكمون بما أنزل الله .

فما رأى هؤلاء فى ما أمر الله به من إجارة المشرك وتأمينه إذا طلب ذلك ؟ ثم أليس المسلم الناطق بالشهادتين حتى ولو كان غير فاقه للإسلام أولى بالرعاية من المشرك ؟

وقد حددت الآيات تحديداً واضحا ذلك الصنف من المشركين المراد قتاله وتأديبه بقوله تعالى : « **ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة** » فهم أولا

نكثوا الأيمان . ثم اعتدوا على حرمة صاحب الدعوة لمحاولة إخراجه من بلده .

وهم ثالثا بدأوا بالقتال لا المسلمين .

وآيات سورة التوبة التالية تعطينا صفات ذلك الصنف من المشركين الذين برئت منهم ذمة الله ورسوله : « **كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلاّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون** » .

(التوبة آيات ٨ — ١٠)

والآيات واضحة الدلالة وتعنى ذلك الصنف البغيض من المشركين الذى لم يتوقف عند حدود عدم الإيمان ولكنه استغل العهود والمواثيق ليعتدى على المؤمنين ويصد عن سبيل الله لا يمنعه إلا خوف العقاب فإن أمن على نفسه ووجد الفرصة للنيل من المسلمين لا يرقب فيهم إلا ولا ذمة ، ومن البديهى طبعا ألا يكون لهؤلاء عهد عند الله وعند رسوله .

والآية التالية بعد ذلك :

« **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصّل الآيات لقوم يعلمون** » ليست المخرج الوحيد كما يتبادر

فالآيات فى جملتها تعنى أنهم إن آمنوا فيها ونعمت ويصبحوا إخوانا للمسلمين ويهدر كل ما فعلوه معهم من قبل وإن لم يؤمنوا وحافظوا على عهدهم واستقاموا عليه فلا مانع وإن نكثوا اليمين يقاتلوا حتى ينتهوا من هذا الموقف العدوانى .

أما الآية المنعوتة بآية السيف « **وقاتلوا المشركين كافة** » والتى يقولون إنها تنسخ كل ما عداها وتأمر بتطهير العالم من كل مشرك فلا تحتمل كل هذا لأنها ليست مفردة بل لها تتمة وهى « كما يقاتلونكم كافة » وهذه التتمة تزيل اللبس فى الجملة وتعيد الأمر إلى نصابه فى وجوب قتال المشركين الذين يقاتلون المسلمين وتظهر مقدار ما فى الاستناد إليها من تجوز كبير أيضاً .

وفى مواضع أخرى من القرآن بيان صريح بأن الله لم يجعل للمسلمين سبيلا على من يسالمهم وأن المسلمين يقاتلون ردا على اعتداء أو منعا لفتنة .

وذلك واضح فى سورة الممتحنة مثلا : « **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون** » وفى سورة النساء آيات تقرر ما يجب اتخاذه نحو مجموعة المنافقين الذين تخلفوا عن القتال فى أحد ووضح بذلك سوء قصدهم نحو الإسلام

والمسلمين . فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث زيد بن ثابت أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله ﷺ منهم فرقتين : فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول لا فأنزل الله : « **فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا** » فقال رسول الله ﷺ إنها طيبة (أى يثرب) وإنها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة .

لقد أوضحت الآيات أن مجموعة المنافقين هذه قد أصبحت فريسة الكفر والشر وأن ما يودونه هو أن يكفر المؤمنون حتى يكون الجميع فى يثرب سواء فى الكفر وقد حذر القرآن من اتخاذهم نصراء أو أولياء إلا إذا خرجوا مجاهدين لله وبذلك تزول عنهم صفة النفاق فإذا أعرضوا عن ذلك وانضموا إلى أعداء الله فقد وجب قتلهم حيث وجدوا .

والكلام هنا واضح والمناسبة لا تحتمل تعسفا فى التأويل فدولة الإسلام فى المدينة كانت قائمة ينظم شئونها الرسول ﷺ والدولة معرضة لهجوم مبيت وكل من يتخلف عن الدفاع فى مثل هذا الموقف إلى جانب نكوصه عن الدفاع عن العقيدة التى اعترف

بها ، هو مواطن متواطىء مع العدو فإن ثبت بعد ذلك هذا التواطؤ بالإصرار على عدم الخروج للقتال نكاية فى زملائه من المجاهدين وقادة الأمة التى يعيش فيها فإن الواجب على الدولة أن تقتله حرصا على سلامة المعركة وأمن الأمة والدولة وهذا أمر معترف به فى كل القوانين الحديثة . والواجب أن ننبه فى هذا المقام أن قتل أمثال هؤلاء أو إهدار دمهم هو سلطة الدولة القائمة وفى حالة تعرض أمن البلاد ونظامها للخطر أثناء القتال وليس سلطة أفراد أو جماعة تتصور أن أمثال هذه الآيات تبيح إهدار دم المخالفين وقتل من يقف فى سبيلهم فليس من حق أحد إلا رئيس الدولة المسلمة الذى بايعه أهل الحل والعقد فى الأمة أن يحكم بقتل أحد أو إهدار دمه وتلك هى الثغرة الخطيرة التى عانى منها المسلمون فى تاريخهم الطويل وخذ على سبيل المثال فرق الخوارج منذ التحكيم فى خلافة على بن أبى طالب إلى فترة طويلة من العهد العباسى فقد أجازوا قتل مخالفيهم من المسلمين وإهدار دمهم وارتكبوا باسم الإسلام فظائع يقشعر لها البدن لأنهم أخذوا أمثال تلك الآيات على ظاهرها دون الرجوع إلى باقى النصوص التى يفسر بعضها بعضا فى ظل المقاصد العليا للشريعة والأهداف السامية للإسلام . والذين يستدلون بهذه الآيات على فكرتهم بأن الإسلام لا يقبل من الناس إلا الدخول فيه أو القتال يتعامون أو يجهلون ما يشير إليه باقى السياق فى كل المناسبات

المشابهة .

فبعد أن قال الله سبحانه وتعالى : « **فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا** » .

استثنى سبحانه وتعالى من القتل جماعة منهم أصحاب العهود والمواثيق وغير المعتدين والمحاربين من جماهير العرب كلها فقال سبحانه وتعالى : « **إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** » .

(سورة النساء : ٩٠)

والاستثناء هنا من الأخذ والقتل فقط أما الموالاة فحرام مطلقاً فلا يتخذ منهم الولى والنصير إلا إذا رأى القائد أثناء القتال أن يستعين بهم ضمن خطته لضرب قوة أكبر وتوهين خطوط العدو أو اتقاء شرهم حتى ينجلى الموقف لصالح المسلمين .

والأمر بعدم قتالهم هنا لما بين المسلمين وبينهم من العهد والميثاق وقد اختلف فى هؤلاء الذين نزلت فيهم آية الاستثناء هذه فقيل هم قريش كان بينهم وبين النبى ﷺ ميثاق والذين يصلون إلى قريش هم بنو مدلج وقيل نزلت فى خزاعة وقيل بنو بكر بن زيد وأيا كان السبب فالآيات على عمومها تستثنى من حكم القتل المعاهدين غير المعتدين .

والآيات بعد ذلك تأخذ جوانب الموضوع كله فإن هؤلاء المعاهدين قد يستغل بعضهم موقف الإسلام منه فيتذبذب بين القتال والسلم وبين الإسلام والفتنة يخشى قومه ويخشى سطوة المسلمين وقد يريد أن يتخذ له سبيلا يأمن به الطرفين في وقت واحد وهؤلاء لا يقاتلون إذا اعتزلوا القتال وكفوا أيديهم عن الإيذاء أما إذا حدث العكس وأصبحوا خطرا ، يتمسحون في العهد إذا خافوا ويحملون السلاح إذا أمنوا على أنفسهم من المسلمين ، فقد جعل الله للمسلمين عليهم سلطاناً مبينا .

فالإسلام يربط نظامه فى القتال وفى مواجهة الناس بهدف أسمى هو توفير الأمن للأمة ورد الاعتداء أيا كان وإفساح الحرية لغير المسلمين للدخول فى الدين بلا إكراه ولا إرهاب .

« ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » (سورة النساء : ٩١)

الفتوحات الإسلامية :

ومن الفهم السقيم أن يظن أحد أو يدعى أن حركة الفتح الإسلامى داخل الجزيرة العربية ثم خارج ربوعها فى خلافة أبى بكر وعمر كانت لإرغام الناس على قبول الإسلام .

أما الإرغام على قبول الإسلام فلا ، وأما القضاء على الجاهلية العالمية فمن مقاصد الإسلام ولكن القتال لا يكون هو الوسيلة إلا إذا اختارت تلك الجاهليات القتال للعدوان على دولة الإسلام أو تأهبت تأهبا واضحا لضرب المسلمين وهزيمتهم .

ولم يفاتح النبى أحدا بالعداء فى بلاد الدولتين إنما كتب إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته بالحسنى ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم إلا بعد تحريضهم القبائل العربية فى العراق والشام على غزو الحجاز وإعدادهم العدة لقتال المسلمين وقد علم المسلمون بإصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية فى بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لمدافعتها والتحصن دونها .

وقد جاء أن كسرى أرسل إلى عامله فى اليمن يأمره بتأديب النبى أو ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه وفى السنة التاسعة للهجرة

تجمع الروم على حدود الدولة الإسلامية فى الشمال وحرضوا العرب التابعين لهم وأرسلوا طلائعهم إلى تبوك فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى عدد غفير من المسلمين وكان من الواضح أن خروج الرسول ﷺ كان لمباغتة الروم قبل أن يباغتوه فقد أجمع المؤرخون والمفسرون أن وقت الخروج كان مفاجئا حتى وصف القرآن ذلك بساعة العسرة .

يقول الطبرى فى حديثه عن تلك الغزوة نقلا عن ابن إسحق « أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وذلك فى زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد وحين طابت الثمار وأحبت الظلال فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذى هم عليه وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الذى يصمد إليه إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو ليتأهب الناس لذلك أهبته وأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم » .

ولكن الجيش بعد أن بلغ تبوك لم يجد أثرا لجيش الروم الذى انسحب لظروف داخلية وكانت الفرصة سانحة للمسلمين لو أرادوا تأديب تلك البقاع الممالئة للروم ولكن الاعتداء ليس فى طبيعة الإسلام ،فقد آثر القوم عدم مواجهة المسلمين ذلك العام ولذلك أمر النبى بالعودة بعد أن أقام فى تبوك أياما .

ولو كانت قواعد الإسلام تبيح القتال كوسيلة من وسائل فرض الإسلام لما عاد المسلمون من تلك الغزوة إلا بعد اجتياح الأرض الخضراء جنوب الشام وهى دون قوة تدافع عنها بعد انسحاب الرومان . وقادة الجيوش فى أمثال تلك المواقف لا يتورعون عن السلب والنهب ونشر الذعر والخوف تأمينا لحدود دولتهم فى فرصة قلما تسنح ولكن القوم لم يرفعوا سلاحا فى وجه المسلمين ولا وقفوا مستعدين للقتال فاستجاب المسلمون بقيادة رسولهم الأمين لأمر الله سبحانه وتعالى : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** » (البقرة)

وقد رأى النبى ﷺ وهو بتبوك أن يقبل السلام والمصالحة ممن أراد السلام والمصالحة وأن تأخذ عليهم العهود ويعطيهم الأمان فى ظل الدولة بعد أن يقبلوا دفع الجزية وهى ضريبة دفاع وأمان كما ذكرنا تقابلها واجبات فى عنق الدولة وليست أتاوة مفروضة بلا مقابل بل هى البديل عن الإسلام من قوم آثروا السلامة فى ظل الإسلام دون الدخول فيه .

وقد أورد المؤرخون قدوم وفود من أيلة وأهل جربا وأذرح يعرضون دفع الجزية والدخول فى أمان المسلمين فلم يرغمهم أحد على الدخول فى الإسلام ولا انتهكوا حقهم فى البقاء على دينهم ما رغبوا السلام واختاروا المصالحة .

وقد كتب لهم رسول الله ﷺ كتب الأمان وهذا نص ما ورد

من كتاب الأمان لصاحب أيلة الذى جاء يطلب دفع الجزية والأمان .

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنة بن رؤية أهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماءا يردونه ولا طريقا يردونه من بر أو بر » .

وموقف الإسلام من مشركى قريش والجزيرة العربية حين دار القتال المرير طيلة العهد المدنى تقريبا لم يكن نابعا من فكرة ألا بقاء لغير الإسلام فى الجزيرة فقد كانت عداوة القوم سافرة لا يكتمها المشركون ولا يواربون فيها ولا يخفون أنهم عقدوا النية على الإيقاع برسول الله ﷺ وأصحابه وفض العرب من حوله وإيذاء كل من يدخل منهم فى دينه قلم تكن بين المشركين والإسلام حالة غير حالة الحرب إلا فى أيام صلح الحديبية الذى عقدوه مع الرسول حين اشتد ساعد المسلمين فى المدينة ولكنهم سرعان ما نقضوا الصلح لأن الوفاء بالعهود لم يكن فى طبعهم فعادت الحرب سجالا بين الفريقين حتى فتح مكة وانتقلت من قتال سافر إلى قتال بالدس والمكيدة . ولما كانت معظم القبائل الضاربة فى أغوار الجزيرة أو القريبة من يثرب تتذبذب فى موقفها

وتسارع إلى نصرة قريش وحلفائها إذا ظنت أن الدائرة ستدور على المسلمين فقد اعتبر الرسول موقفها ذاك موقفا عدائيا فأرسل إليها السرايا لتأديبها إن أصرت على العداء أو ليأمن المسلمون جانبها بعهد أو ميثاق وكانت الحرب مع هؤلاء حرب دفاع أو حرب مبادرة لاتقاء الهجوم من جانبهم أو ميلهم إلى قريش ومساعدتهم إياها ضد الإسلام .

ولا يمكن أن يقال فى ذلك إن السرايا والجيوش كانت تخرج من المدينة إلى القبائل العربية فى نجد والحجاز وشمال الجزيرة لأن الدولة الجديدة فى يثرب لم تكن تقبل من الناس إلا الإسلام أو الإبادة .

ومبدأ القتال للدفاع عن العقيدة ضد الفتنة وللدفاع عن الدولة ضد الاعتداء مبدأ محكم ثابت لم ينقض أو ينسخ فى أى فترة من فترات السيرة النبوية تبشر به وتدعو إليه آيات بينات « **الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون** » أليس هؤلاء جديرين بأن ينبذ إليهم المسلمون عهدهم ليأمنوا شرهم وأن يشردوا بهم من خلفهم .

« **فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم مَّن خَلْفَهم لعلهم يذكرون** » .

وإذا نبذ هؤلاء العهد فلينبذ المسلمون كذلك العهد ليس

خداعا ومواربة بل على سواء وذلك حين يشتم المسلمون رائحة الخيانة .

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .

ورغم مواقف المشركين والمنافقين من اعتداء ونقض للعهود والمواثيق والتذبذب أحياناً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فقد جاء القرآن بهذا المبدأ الكريم مبدأ السلام لأن الحرب شيء عارض .

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » (الأنفال : ٦١)

والإسلام لا يسارع إلى نقض عهد ولا يبدأ باعتداء ولكنه يحترم مبدأ المسالمة حتىَ ولو كان نقضها مظنة خير للمسلمين :

« والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير » .

(سورة الانفال : ٧٣)

وقد جاء بعضهم إلى آية مثل « **إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير** » واستدل بها على ضرورة فرض الإسلام فى الأرض وإرغام الناس عليه بالقتال وتدمير عروش الملوك وسلطان

الحكام حتى يدخلوا فى دين الله وفى هذا التفسير من المغالاة الشيء الكثير .

فقد جاءت الآية المذكورة فى سياق التمييز بين التناصر لله والحق الذى كان عليه المؤمنون وبين التناصر للكفر والباطل الذى كان عليه المشركون فقد كانت هناك طائفتان متميزة كل منهما عن الأخرى :

طائفة آمنت وهاجرت وجاهدت بالمال والنفس فى سبيل الله وانضمت إليها طائفة آوتهم ونصرتهم وكلهم يمثلون مجموعة متجانسة مؤمنة لها سماتها وفضائلها وهم لذلك نصراء بعضهم بعضا تجمعهم الرسالة ويؤلف بين قلوبهم حب الله وحب رسوله .

ثم طائفة كافرة تقابل الطائفة الأولى بالقتال والاعتداء صدا عن سبيل الله يوالون بعضهم بعضا فى الكفر والشرك والفساد. ولا يمكن عقلا أن تتم الموالاة إلا بين المؤمن والمؤمن أو الكافر والكافر فإن حدث العكس ووالى المؤمنون الكافرين فإن فى ذلك نقض لقيم الإسلام العليا فى التمييز بين الحق والباطل لأن الكفر سوف يجد الميدان مهيأ لفتنة المسلمين عن دينهم وبذر الفساد والانحلال .

وكلمة « إلا تفعلوه » فى الآية لا تعنى إلا تقتلواوتعتدوا ولكن

السياق يبين بوضوح أن معناها إذا لم تولوا بعضكم بعضا وخالفتم بموالاة الكافرين والمشركين فلابد أن تقع الفتنة والفساد فى الأرض .

وها هو السياق كله كما عرضه الله فى سورة الأنفال :

إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شيء عليم » .

(سورة الأنفال : ٧٢ — ٧٥)

والآيات لا تشير إلى معنى عدم الموالاة بمعنى الانقضاض على الكافرين وقتلهم واستئصال شأفتهم حتى لا تكن الفتنة ولا هى نداء للمؤمنين لكى يهبوا فى كل مكان قالبين لأنظمة الحكم

مدمرين للعروش وأصحاب السلطان فللقتال فى الإسلام شروط ودواعى وللدعوة إلى الإسلام سبل السلام وليس للذين قصر باعهم عن استمالة قلوب الناس بالقدوة الصالحة والبرهان الصادق والآداب الإسلامية الرفيعة ، أن يعوضوا ذلك النقص لمحاولات الوثوب السريع إلى السلطة والدخول فى صراعات قد تكون وبالا على المسلمين وتعويقا لانتشار الدعوة وإعطاء الفرصة لأبواق الشر المغرضة للكيد للإسلام وأهله وتصوير أنصاره على أنهم مجموعة من المغامرين والمتهورين .

ولو ألقينا نظرة عامة على خريطة العالم اليوم لعلمنا أن السيف لم يعمل فى انتشار هذا الدين إلا القليل مما عمله الإقناع والقدوة الحسنة فإن البلاد التى قلت فيها حروب الإسلام هى البلاد التى ضمت أكثر مسلمى العالم مثل أندونسيا والهند وسواحل القارة الأفريقية وما يليها من سهول الصحارى الواسعة فإن عدد المسلمين فيها قريب من ٤٠٠ مليون ولم يقع فيها فتوحات عسكرية إلا فى النادر الذى لايجدى فى تحويل الآلاف عن دينهم بل الملايين .

وقد يقول قائل إن هؤلاء جميعاً لا يفقهون من أصول الإسلام إلا القليل وقد يتأول البعض فيحكم بخروجهم عن الإسلام ولكن موضوع حديثنا الآن هو كيف قبل هؤلاء بادىء ذى بدء الدخول فى الإسلام بتلك الأعداد الغفيرة لولا اقتناعهم بأنه

الدين الأمثل وتقديرهم للدعاة الذين بشروا بهذا الدين فى تلك البقاع ولو كان السيف هو الطريق الوحيد لنشر الدين لما أمكن لتلك الملايين أن تقبل على هذا الدين وهى لا ترى سيفا مصلتا أو رماحا مشرعة .

وإذا كان المسلمون على ماهم عليه من تخلف الآن فتلك ثمرة قرون طويلة من تجافيهم عن نداء الله وبعدهم عن روح الدعوة السليمة وإن مبدأ واحدا فقط هو مبدأ عدم موالاة الكافرين الذى ذكرناه ليفسر بعض هذا التخلف والتأخر فإن الدول الإسلامية والأمم الإسلامية فى الماضى قد غفلت عن خطورة الصراع على الدنيا بموالاة الكفر وما سقوط الدولة الإسلامية بالأندلس منا ببعيد حين كان الأمراء المسلمون فى بعض الأقطار الأندلسية يستعينون بدول غير مسلمة على إخوانهم فى الدين حتى ضاعت الأندلس كلها وأبيد المسلمون فيها شر إبادة واستأصل الصليبيون شأفتهم وقس على ذلك ما حدث فى بلاد مسلمة أخرى كان آخرها أن يفتح جيش مصرى بقيادة انجليزية مدينة القدس ليطرد منها الأتراك لتكون فيما بعد عاصمة للصهيونية كما هى اليوم .

إن المجتمعات الإسلامية الغير فاقهة أو مدركة لجمال العقيدة الإسلامية وروحها تحتاج إلى من يدعوهم إليها ويبصرهم بجمالها

ويجعل من نفسه القدوة الصالحة لا إلى ذلك الذى يحكم عليهم بالكفر ويتأول الآيات لإراقة دمائهم ويدخل مع أصحاب السلطة فى صراع غير متكافىء تكون نتيجته نكسة جديدة لسير الدعوة وإفساح المجال للملاحدة وأهل الباطل ليصولوا ويجولوا فى ميدان ليس فيه مقاومة . ميدان العمل الجماهيرى الذى هو أصلا ميدان الدعوة السليمة إلى الله .

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » صدق الله العظيم

ومن الأدلة العلمية فى عهد الفتوح الإسلامية وما بعدها أن المسلمين أقاموا قرونا فى الأندلس تعايشهم فيها طوائف مسيحية وبعض اليهود كما حكموا مصر والشام والعراق وشمال أفريقيا واحترموا عقائد غيرهم ما داموا مسالمين فى ظل الدولة .

ولقد أدرك الأوروبيون فى عهد الحروب الصليبية كيف كان الإسلام متسامحا كريما فى الوقت الذى كان الغزاة الذين لا يحملون من المسيحية إلا اسمها يعيثون فى أرض الإسلام فسادا فلما دارت عليهم الدائرة عوملوا بالعدل والتسامح وقبل المسلمون وجود طوائفهم بالشام حين عقدوا مع صلاح الدين صلح الرملة الذى أنهى الحرب الصليبية الثالثة .

كما أنه لم يرد أى خبر بأن النبى ﷺ رفض فى أى وقت طلب صلح أو عهد أو أمان من أعداء محاربين كما أنه لم يرد أى خبر

بأنه قاتل أو أمر بقتال أناس مسالمين أو حياديين أو معتزلين كما أنه ﷺ لم يبعث سرية ولم يباشر غزوة ولم يشتبك بقتال مع فئة إلا ردا على عدوان أو انتقاما من عدوان أو دفعا لأذى أو تنكيلا بغادر أو تأديبا لباغ أو ثأرا لدم إسلامى أهدر أو ضمانا لحرية الدعوة والاستجابة إليها أو بناء على نكث عهد أو بسبب مظاهرة لعدو أو تآمر معه على المسلمين .

ووصايا النبى ﷺ والخلفاء رضى الله عنهم لقواد الجيوش التى كانت تخرج للغزو كانت بألا يقاتلوا إلا من يقاتلهم وبأن يسالموا من يسالمهم وبأن يتركوا من لا يتعرض لهم ومن يعتزلهم وشأنه .

وبهذه الروح العظيمة انتشر الإسلام يخالط شغاف القلوب بحب الناس لمبادئه يألفون أهله ويحترمون فيهم سماحتهم ويقدرون لهم الخلق الطيب ولين الجانب والرأفة والعدل ولكن السيف كان كذلك فى يد المسلمين لا لإرغام الناس على الدخول فى الدين وإرهابهم ولكن لرد الاعتداء وصد الأذى والدفاع عن الضعفاء والمساكين والمستعبدين فى ظل الجور والظلم .

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » (سورة النساء : ٧٥)

مطابع
المكتب المصري الحديث

لا إكراه فى الدين

لا شك أن قضية الإكراه فى الدين أو ما نسميه سبيل العنف لفرض الرأى هى أولى القضايا بالبحث والتحقيق وهى قضية ليست نبت الساعة ولكنها القاسم المشترك الأعظم فى كل أدوار العنف والصراع بين الجماعات وبعضها أو بينها وبين السلطة . وقد اخترنا عنوانا لهذا الكتيب آية من القرآن الكريم « لا إكراه فى الدين » وهى وحدها كافية للتعبير عن الهدف والقصد . ونسأل الله أن يوفقنا كى نواصل إصدار ما التزمنامن كتيبات أخرى فى معانى إسلامية هامة خاصة بفكر الجماعات حتى يستقيم الناس معنا على معانى الود والخير تحت راية الإسلام .

« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين »

صدق الله العظم



الثمن ٢٥ قرش